**الأستاذة المشرفة على المقياس : بن عيسى خيرة**

**مقياس الفرق الكلامية : ( مح + تط )**

**السّنة الدّراسيّة 2020- 2021**

**المستوى : ماستر 1/ تخصص فلسفة عربية إسلامية .**

**المحاضرة الأولى : مدخل إلى علم الكلام : التعريف / أسباب النشأة / المراحل**

يعتبر علم الكلام من العلوم الإسلاميّة الأصيلة على خلاف الفلسفة الإسلاميّة الّتي هي نتائج تأثّر المسلمين بالفلسفة اليونانيّة ، وإن كان علم الكلام أحد أهمّ مباحثها فإنّه إبداع وضعه المسلمون كما أبدعوا في وضع علم الفقّه وأصول الفقّه ومناهج البحث والبلاعة وغيرها من العلوم .

 تميّز علم الكلام بخصوصيّة الموضوع والمنهج والغرض والمرجعيّة كذلك ، فهو يختلف عن علوم البرهان كالفلسفة ويختلف كذلك عن علوم الشّريعة كالفقه وأصوله وعلوم الحديث كذلك ، لكنّه يأخذ من هذه العلوم بعض مبادئها وآليّاتها في الحجاج والجدل والاستناد إلى النّصّ الشّرعيّ .

 من هنا يمكن أن نضع تعريفا لعلم الكلام ونشير إلى أسباب تسميته كذلك .

 1/ سبب التسمية : يطلق عليه علم العقيدة وكذلك علم التّوحيد والصّفات ، وهذه التّسمية الأخيرة للجرجانيّ ، يسمّيه كذلك التّهانونيّ يعلم أصول الدّين ، يسمّى كذلك بعلم النّظر والاستدلال ، ويسمّيه أبو حنيفة بالفقه الأكبر ، وهو عنوان لأحد كتبه ، وذلك في مقابل الفقه الأصغر وهو علم الأحكام الفرعيّة أو العمليّة.

 أمّا لماذا سمّيّ بعلم الكلام فالرّوايات في ذلك متعدّدة منها ما يذكره ابن خلدون في أنّ التّسمية نابعة من كون هذا العلم قائم على الجدل والمناظرة وهذا بدوره يعتمد على الكلام ، فيكون صاحبه على قدرة كبيرة من قوّة المحاججة والمناظرة ، أو كما يقول : " إمّا لما فيه من المناظرة على البدع وهي كلام صرف ، وليست براجعة إلى عمل " .

ويذكّر الشهرستانيّ رأيا آخر ، يرجع من خلاله سبب التّسمية إلى أن المتكلّمين وضعوا لأنفسهم منّهجا للجدل والحجاج والمناظرة في مقابل منهج الفلاسفة القائم على المنطق فيقول : " وإمّا لمقابلتهم الفلاسفة تسميتهم فنّا من فنون علمهم بالمنطق ، والمنطق والكلام مترادفان ".

 هذا ، وتوجد روايات أخرى ترى بأنّه سمّي بعلم الكلام لأنّ أبوابه عنونت بالكلام في كذا ؛ أي في الصّفات في التّوحيد... ، أو سمّي بعلم الكلام لأنّ رأس مسائلة مسألة كلام الله أو لأنّه كثر فيه الكلام ويجمع ألّإيحيي كلّ هذه الآراء في كتابة المواقف في قوله : " وإنّما سمّي الكلام إمّا لأنّه بإزاء المنطق للفلاسفة ، وإمّا لأنّ أبوابه عنونت بالكلام في كذا ، أو لأنّ مسألة الكلام أشهر أجزائه حتّى كثر فيه التّشاجر والسّفك فغلب عليه ، أو لأنّه يورث قدرة على الكلام في الشّرعيّات ومع الخصوم " .

 2/ تعريف علم الكلام :

لعلم الكلام تعريفات عديدة لكنّها كلّها نصب في معنى واحد إذ لا تخرج عن كونه علما من العلوم الشّرعيّة الإسلامية موضوعه العقائد ومنهجه الجدل وغايته الدّفاع عن العقيدة ودفع الشّبه عنها ومرجعيّته النّصّ .

 والمقصود بالعقائد أركان الإيمان وهي أصول الدّين موضوعها الله والملائكة والكتب والرّسل واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشرّه ، وهي غير الفروع الّتي ترتبط بالمعاملات وتدخل في ميدان علم الفقه ، وفي ذلك يقول الجرجانيّ ( توفّي " 716 هـ - 1413 م " ) : " الكلام علم يُبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكّنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام ...و الكلام علم باحث عن أمور يعلم منها المعاد وما يتعلّق به من الحبّة والنّار والصّراط والميزان والثّواب والعقاب ، وقيل : الكلام هو العلم بالقواعد الشّرعيّة الاعتقاديّة المكتسبة من الأدلّة " .

 يعرفه ابن خلدون بقوله : " هو علم يتضمّن الحجّاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة والرّدّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السّلف وأهل السّنّة " ، المقدّمة : " وهذا القول لابن خلدون يتضمّن جميع نواح العلم ، أمّ الحجاج فهو طريق المتكلّمين في دفع الشّبه عن الدّين ودرئها ، ومن ثمّة هو منهج لإثبات أصول الدّين بأدلّة يقينيّة ، فما ورد في النّصّ هو نصّ لا شبهة فيه ومنه يستنبط المتكلّم دليله لإثبات العقائد الإيمانيّة الّتي هو على علم بها ، فهو " العلم بالعقائد الدّينيّة عن الأدلّة اليقينيّة " التّفتزانيّ شرح المقاصد .

 أمّا الأدلّة العقليّة فيقصد بأنّ علم الكلام يعتمد على العقل في الحجاج والاستدلال وكذلك في ردّ الشّبه وإبطالها ، فهو منهج ، والمنهج يحتاج إلى الأداة حتّى يتمكّن من أداء عمله ، فكانت أداة المتكلّمين العقل كما كان المنطق أداة الفلاسفة .

 وفي ذلك يقول أبو حيّان التّوحيديّ ( توفّي " 400 هـ - 1009 م " ) في رسالته ثمرات العلوم : " وأمّا علم الكلام فإنّه باب من الاعتبار في أصول الدّين يدور النّظر فيه على محض العقل في التّحسين والتّقبيح والإحالة والتّصحيح والتّجويز والاقتدار والتّعديل والتّجويز والتّوحيد والتّكفير " .

 أمّا غاية علم الكلام فهي الدّفاع عن العقائد الإيمانيّة ودفع الشّبه عنه من أولئك الّذين كانوا يشكّكون فيه ويثيرون الشّبهات حوله ، وتفصيل هذه المسألة سيكون في خلال الكلام عن أسباب نشأة العلم . وهو بهذا المعنى يختلف عن الفقه وعن أصول الفقه ، أمّا الأوّل فهو ما ارتبط بالأحكام العمليّة كالصّيام والصّلاة وغيرها من العبادات ، وطريقه في استنباط الحكم الشّرعيّ هو الرأي والاجتهاد أو كما يقول أبو حيّان التّوحيديّ " أمّا الفقه فإنّه دائر بين الحلال والحرام ، وبين اعتبار العلل في القضايا والأحكام ، وبين الفرض والنّافلة ، وبين الواجب والمستحبّ ، وبين المحثوث عليه والمنزّه عنه ... " .

 في حين يختصّ علم أصول الفقه " بإدراك القواعد الّتي نتوصّل بها إلى استنباط الأحكام الشّرعيّة الفرعيّة من أدلّتها التّفصيليّة ، وبمعنى أدقّ هو منهج الفقه أو منطقه "

 3/ أسباب نشأة علم الكلام : علم الكلام هو علم " الدّفاع عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة " ودفع الشّبه والشّكوك عن الدّين الإسلاميّ في ناحية عقائده وأصوله ، وذلك عن طريق الحجاج والنّظر العقليّ ومنهج الجدل .

 وهو من العلوم الإسلاميّة الأصيلة ، فكما أبدع المسلمون الفقه وأصول الفقه وعلم الحديث والبلاعة وغيرها وكانت علوما إسلاميّة أصيلة كذلك أنتجوا علوم الكلام . وعلم الكلام لم ينشأ منذ القدم بل حديث النشأة كغيره من العلوم الإسلاميّة الأخرى وكانت له أسباب ساهمت في نشأته تراوحت بين الدّاخليّة والخارجيّة .

أ - الأسباب الخارجية :

 أمّا الخارجيّة فمن خارج البلاد الإسلاميّة ؛أي ما دخل على المسلمين من ثقافات وديانات مختلفة غربيّة وشرقيّة كانت كدافع استدعى إلى ضرورة الرّدّ على هؤلاء .

 لقد كان هذا الاختلاط بين المسلمين وغيرهم والّذي اشتدّ في عهد الفتوحات الإسلامية سببا خارجيّا مباشرا و أساسيا لنشأة علم الكلام ، فالمسلمين اختلطوا بشعوب كثيرة لها ديانات مختلفة ، فلم يكن اليونان هم الشّعب الوحيد الّذي اختلط به المسلمون ، بل شعوب أخرى تراوحت دياناتهم بين اليهوديّة والمسيحيّة والصّابئة والوثنيّة والمنويّة وغيرها .

أمّا تعرف العرب [بغيرهم](%D8%A8%D8%BA%D9%8A%D8%B1%D9%87%D9%85) واختلاطهم بهم كان قديما ، يمكن أن نعود بتاريخ العرب حتّى مرحلة الجاهليّة من خلال التّجارة والحملات التّبشيريّة ، لكنّه اختلاط لم يساهم في نشأة علم العقائد لأنّ العرب في ذلك الوقت لم تكن لهم رسالة سماويّة منزّلة فلم يؤثّر ذلك الاختلاط على العرب .

 أمّا وإن كان للعرب ديانة سماويّة توحّدهم فإنّ أصحاب الدّيانات الأخرى همّوا إلى تنصير دياناتهم ورفعها والدّفاع عنها وكان سبيلهم في ذلك نشر الشّكوك والشبيهات حول القرآن الكريم .

 وعندما شعر المسلمون بخطورة الوضع وخافوا على دينهم من الشّبه والشّكوك الّتي كانت تثار حوله أوجبوا على أنفسهم ضرورة الرّدّ والدّفاع فنشأ علم الكلام .

 إلّا أنّ هذا العلم لم ينشأ منذ البداية كعلم بل مرّ بمراحل وأدوار حتّى أصبح علما متكاملا له أبوابه وفصوله ومبادئه ، إذ لا يمكن التّحدّث عن علم الكلام كعلم إلا مع نهاية القرن 2 هـ وبالتّحديد مع المعتزلة وهي المرحلة الّتي بلغ فيها ذروته وصولا إلى القرن 4 هـ مع الأشاعرة وهذا الزّمن هو زمن تدوين علم الكلام .

ومنه فأنّ اختلاط المسلمين بغيرهم ، كما أشرنا هو السّبب الخارجيّ المباشر ، انطلاقا من أنّ أولئك المشكّكين في الدّين والمثيرين للشّبهات كانوا قد تعرّفوا على الفلسفة اليونانيّة وعلى المنطق الأرسطيّ ، وبذلك كانوا قد أتقنوا طريقة الجدل والبرهان والحجاج في المسائل اللّاهوتيّة . هذا إضافة إلى أنهم كانت لهم ديانات قديمة ، كل هذه الإمكانيّات وإن صحّ تسميتها المؤهّلات أعطتهم القدرة على إتقان الجدل في اللّاهوتيّات وفي مسائل أصول العقائد ،كقولهم في التّوحيد والصّفات والقدر والقضاء وغيرها .

 ومن هنا وجب كذلك أن نشير إلى تاريخ هذا الاختلاط الذي كان سببا في نشأة علم الكلام . يمكن الإجابة عن هذا بالرّجوع إلى مراحل بناء الدّولة الإسلاميّة وبالتّحديد إلى المرحلة الّتي بدأت تظهر فيها الفتن والبدع باعتبار أنّ هذا العلم الّذي نتكلّم عنه نشأ ردّا على تلك البدع ودفعا للشّبه وإطفاء للفتن بين المسلمين حتّى لا يضلّ عامّة النّاس من المسلمين بين مشبّه ومجسّم وموحّد وغيرهم .

 ربّما اشتدّ الاختلاط في زمن الخليفة عمر بن الخطّاب ، هذا الأخير الّذي حقّق فتوحات كبيرة نحو الشّرق والغرب ، ومنه فبوادر الجدل في العقائد كانت في زمن الصّحابة رضوان الله عليهم .

ب - لأسباب الدّاخليّة لنشأة عم الكلام:

نقصد هنا أسباب نشأة علم الكلام من داخل البلاد الإسلاميّة ، وعلى رأسها اختلاف المسلمين فيما بينهم ،ولم يكن ذلك في الخلافة فقط لأنّ هذه الأخيرة هي واحدة من الاختلافات الأساسيّة وهي سبب مباشر لنشأة الفرق الكلاميّة ، وهي كذلك ذات طابع سياسيّ فلا يمكن لما هو سياسيّ أن ينتج علما ذو طابع اعتقاديّ ، وإنّما اختلف المسلمون في مسائل عديدة كانت كلّ واحدة منها دافعا لما بعدها ، ويمكن أن نجمل تلك الاختلافات فيما يلي : اختلاف حول الخلافة ، اختلافات فقهيّة ( الأحكام العمليّة ) ، اختلافات عقائديّة ( أصول الدّين ) .

أ-1/ اختلاف حول الخلافة :

هو خلاف مشهور معروف بين المسلمين بعد وفاة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام حول من يؤمّ المسلمين بعده ويتولّى أمور الدّولة الإسلاميّة وهو خلاف سياسيّ خالص .

إنّ تطوّر الخلاف بين المسلمين من خلاف سياسيّ إلى خلاف فقهيّ إلى خلاف عقائديّ أدّى إلى نشأة علم الكلام ، وذلك أنّ الاختلاف بين المسلمين أسفر عن نشوء فرق كثيرة وهذا مرجعه خلاف سياسيّ بالدّرجة الأولى .

أ - 2 / اختلاف حول الأحكام العمليّة :

قد يتساءل البعض : كيف أنّ الخلاف في الفروع كان سببا في نشأة علم الأصول ؟ مع العلم بأنّ الفروع الّتي تمثّل الأحكام العمليّة لها مجالها الخاصّ وعلومها الخاصّة بها وعلى رأسها علم الفقه .

إنّ الفقه وأصوله أو بالأحرى استنباط الأحكام العمليّة من أدلّتها التّفصيليّة أدّى إلى الرّأي والاجتهاد ، وهذا المنهج عند المسلمين مسموح به وليس بدعة ، وكان في زمن الصّحابة الّذين كانوا يجيزونه ويعتمدونه فيما لم يكن ظاهرا لهم ، أو فيما لم يبيّنه الشّرع بشكل صريح ، وفي هذا يقول أبو إسحاق الشّيرازيّ في كتابه طبقات الفقهاء : " اعلم أنّ أكثر أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّذين صحبوه ولازموه كانوا فقهاء ، وذلك أنّ طريق الفقه في حقّ الصّحابة خطاب الله تعالى أو خطاب رسوله صلّى الله عليه وسلّم وما عقل منها ، وأفعال رسول الله صلّى الله عليه سلّم وما عقل منها وخطاب الله عزّ وجلّ هو القرآن وقد أنزل بلغتهم وعلى أسباب عرفوها وقصص كانوا فيها فعرفوا مسطوره ومنصوصه ومعقوله " (أبي إسحاق الشّيرازيّ الشّافعيّ ، حقّقه وقدّم له إحسان عبّاس ، دار الرّائد العربيّ بيروت دمن طبعة وسنة ص 35 ).

أمّا في زمن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فقد كان يجيب المسلمين على كلّ ما صعب عليهم بوحي من الله ، لكن بعد موته صلّى الله عليه وسلّم ، ظهرت بعض الأسئلة الفقهيّة الّتي لم يستطع أئمّة المسلمين وعلمائهم من الصحابة والتابعين الإجابة عليها ، إما لأنهم لم يجدوا جوبا صريحا محكما عنها في النص ، أو وجدوا جواب لها ، ولكنه لم يكن واضح الدلالة والمعنى ، فظهرت الحاجة إلى إعمال العقل والنظر من خلال الاجتهاد والرأي .

إن هذا التوجه الجديد نحو الرأي والاجتهاد فتح باب الجدل بين المسلمين ، فدخلوا في بحوث فقهية استدعت منهم مناهج في البحث ، كعلم أصول الفقه ،

خلاصة القول هو أن باب النظر والرأي والإجتهاد في المسائل الفقهية مهد الطريق نحو الجدل في العقائد ، وإن لم يكن الصحابة وأهل الحديث هم الذين أثاروا الجدل حل مسائل التوحيد والصفات وكلام الله والقضاء والقدر ، فإنه أخذوا على عاتقهم في البداية مهمة الرد على أصحاب الشبه والمشككين .

أ – 3/ اختلاف في العقائد : وهو اختلاف ظهر في عصر الصحابة رضوان الله عليهم خاصة في نهايته ، ويمكن أن نلمح بوادره مع فرقة السبئية ، في قولهم بالتأليه ، وأيضا مع فتنة الخوارج الذين بالغوا كثيرا في قولهم بالتكفير وقولهم كذالك في الكفر والإيمان والوعد والوعيد .

هذا وقد تطور الجدل في العقائد مع فرقة القدرية وقولها بنفي القدر وأن الإنسان هو خالق أفعاله ، ثم ظهرت الجهمية والمرجئة وفرق المشبهة وغيرها ، وهذه الفرق ظهرت في نهاية القرن الأول للهجرة مع العهد الأموي الذي كثرت فيه الفتن واشتد فيه الجدل والشك وإثارة الشبه .

إن هذا الجدل في العقائد وما سبقه من جدل سياسي حول الخلافة ، ورأي واجتهاد في الأحكام العملية كان سببا مباشرا في نشأة علم الكلام ، وسنعود إلى هذا الجدل في العقائد بالتفصيل في خلال كلامنا عن مراحل وأدوار علم الكلام ،وذلك فيما يلي :

4/ ادوار علم الكلام ومراحله من الإرهاصات إلى الذروة إلى الضعف :

المرحلة الأولى : بوادر الجدل في العقائد : لا يمكن في هذه المرحلة أن نتكلم عن علم الكلام ، لأنه لم يتكون بعد ، والفترة الزمنية التي تمثل هذه المرحلة هي خلافة الصحابة الأربعة إلى ما بعدها بقليل ، وبالضبط النصف الأول من القرن الأول للهجرة .

تمثل هذه المرحلة البوادر الأولى التي ساهمت في نشوء علم الكلام تمثلت في بعض الشبهات والشكوك التي كانت تُبث في داخل المسلمين من طرف بعض المندسين ، وهذه المرحلة لا تشمل زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن المسلمين في زمنه كان إيمانهم تسليمهما واعتقادا ، فلم يكن هناك جدل في العقائد لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجيب بوحي من الله.

إلا أنه وبعد فترة الرسول عليه الصلاة والسلام ، جاء دور الصحابة الذين كانوا يجيزون الرأي في الأحكام العملية ، ويمنعون النظر في العقائد إذ اعتبروه بدعة وضلالة ، فحرموه وتوعدوا كل من يخوض في العقائد بطلانا.

أكبر الفتن في هذه المرحلة فتنة السبئية والخوارج ، أما عبد الله بن سبأ الذي قال بإلهية علي فيما يروى عنه ، وهذه فكرة من العقائد محضة لارتباطها بوحدانية الله ومنه كان للسبئية دور في إثارة الشبه والشكوك ، أما الخوارج فقد كانوا في أول أمرهم أصحاب قضية سياسية لكن ما لبثوا أن تطورت أفكارهم إلى جدل في العقائد ، وذلك من خلال قولهم في مسألة الكفر والإيمان ، ومرتكب الكبيرة ، فقد كفر الخوارج غيرهم من المسلمين (أنظر محاضرة الخوارج ) ، بل بلغ بهم الأمر إلى تكفير بعضهم البعض ، يذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق أن الخوارج " افترقت عشرين فرقة كانت كل واحدة منها تكفر الأخرى " ، هذا وقد ارتبطت مسألة التكفير عندهم بالوعد والوعيد ، فقد اعتبروا أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار .

كما ظهرت فتنة أخرى في زمن الصحابة وهي فتنة القدرية ،ولعلها كانت موجودة حتى في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لقوله :" القدرية مجوس الأمة" ، والقدريون الأوائل عموما يقولون بنفي القدر و بأن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله / وتعود هذه الفكرة في أغلب الروايات إل معبد الجهني الذي قال " لا قدر والأمر أنف " وهو قول ينفي القدر ويستأنف علم الله ، فالله لا يعلم بالفعل إلا بعد وقوعه ، وفي هذا يقول الإسفرائيني (توفي:471هـ) :"وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية ، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم ، وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة "[[1]](#footnote-2).

إن لهذه الأفكار وغيرها التي انتشرت بين المسلمين دور كبير في إثارة الفتن ، الأمر الذي دفع المسلمين إلى ضرورة الدفاع عن الدين الإسلامي ، فأخذ التابعون من علماء الحديث على عاتقهم مهمة الدفاع عن العقيدة في بداية الأمر ، ومن ثمة اتسعت دائرة الجدل فنشأ علم الكلام و هذه هي المرحلة الثانية من مراحله ، وتفصل ذلك فيما يلي :

المرحلة الثانية : نشأة علم الكلام :

نشأ علم الكلام في العهد الأمويّ ، وهذه المرحلة اشتدّ فيها الجدل حول مرتكب الكبيرة وحول الصفات والوعد والوعيد والقضاء والقدر وغيرها من مسائل العقيدة ، واتّسعت دائرة فرق الجهميّة والمشبّهة والحشويّة وتطورّت القدريّة ،كما اشتدّت فرقة الخوارج والشّيعة كذلك .

إنّ هذا الوضع كان أرضا خصبة لنشوء علم الكلام وذلك عن طريق الجدل والمناضرات بغرض الرّدّ على المشكّكين وأصحاب الشّبهات .

المرحلة الثالثة/ مرحلة ذروة علم الكلام :

يمكن أن نؤرّخ لهذه الفقرة من القرن" 2هـ" إلى القرن" 4هـ " وهي المرحلة الّتي عرفت نشأة فرقتين كبيرتين ومؤسّستين لعلم الكلام وهما : المعتزلة والأشاعرة إلى جانب فرقة أخرى كانت قد نشأت قبل هذا الزّمان وهي فرقة " الشّيعة " وكانت فرق الخوارج والقدريّة والجبريّة وغيرها في تطور في هذه المرحلة المهمّة من علم الكلام .

يمكن أن نميّز هذه المرحلة بخاصّيّتين أساسيّتين هما : التأسيس والتّنظير ، أمّا التّأسيس فمن حيث أنّ المتكلّمين عملوا على إنشاء بنية ومنظومة معرفيّة متكاملة في علم الكلام على مبادئ عقليّة ، ومنها تمّ استنباط التّعريف المشهور لعلم الكلام " الدّفاع عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة " ، وهو ما يجعل الدّليل العقليّ وأسلوب الجدل والحجاج والبرهان طريق علم الكلام في الدّفاع عن العقائد .

 يمكن أن نوضّح هذه الفكرة الأخيرة من خلال ما يلي : إنّ الدّليل العقليّ القائم على الحجاج والجدل هو أسلوب ومنهج المتكلّمين ، إذ أنّ بداية الاشتغال في هذا العلم تفرض وجود شبهة ، والغرض منه هو نفي تلك الشّبهة وإبطالها عبر العودة إلى المرجعيّة الدّينيّة الّتي هي بمثابة مسلّمة غير قابلة للشّكّ ، وبذلك يكون الدّفاع عن المسلّمة لدرء الشّبهة بالعقل أي الانتقال من القضيّة "أ : الشّبهة" إلى القضيّة "ب : المسلّمة" يكون بالعقل ، ويمكن أن يحدث العكس فينتقل العقل من المسلّمة ثمّ يعرض الشّبهة ويقوم بعد ذلك بنفيها وإبطالها ، وكلّ ذلك يتمّ بالعقل ، فعلم الكلام إذن يعتمد على العقل في الدّفاع عن العقائد بدفع الشّبه عنها من خلال استنباط الدّليل الّذي يستمدّ من الشّرع .

إلا أنه توجد مسالة يجب أن نشير إليها هنا وهي مكانة العقل عند الفرق الكلامية ، فالمعتزلة غير الأشاعرة وغير الشيعة كذلك ، ومنه نقول أن العقل كان منهج علماء الكلام لكن بدرجات ، فالمعتزلة كان منطلقها العقل بالدرجة الأولى وهي بذلك أول من مثل المنظومة العقلية في علم الكلام التي أشرنا إليها أعلاه .

أما الأشاعرة فلا ترفض العقل بل اعتبرته منهجا أساسيا في علم الكلام ، وجعلته في المرتبة الثانية بعد الشرع ، ذلك لقصوره وعجزه في كثير من الأحيان ، كعدم قدرته على الخوض في المسائل الغيبية ، وإمكانيته في الوقوع في الخطأ فهو قبل كل شيء عقل بشري .

وعليه نستخلص أن تأسيس علم الكلام لم يتم دفعة واحدة بل كان ذلك عبر مراحل ، وتعتبر فترة القرن الثاني إلى القرن الرابع للهجرة المرحلة الأساسية لعلم الكلام فيها تأسس كعلم ، وإن شأنا الكلام عنه كمنظومة عقلية فإن ذلك كان مع المعتزلة بالدرجة الأولى .

أما من حيث التنظير فنقصد أنه في هذه المرحلة تم تدوين أمهات الكتب في علم الكلام ، إذ قامت كل فرقة بصياغة مذهبها الخاص ، ومن أهم الكتب التي نذكرها على سبيل المثال وليس الحصر : كتب واصل بن عطاء(80/131هـ) :كتاب المنزلة بين المنزلتين ، طبقات المرجئة ، كتاب التوبة ...إلخ.

أبو الهذيل العلاف من شيوخ المعتزلة عاش بين 135/225هـ: كتاب الحج ، رسالة في العدل والتوحيد والوعيد.

عمر بن عبيد من المعتزلة (ت 142هـ) : كتاب الرد على القدرية .

من الشيعة هشام بن الحكم (ت 179هـ) : كتب في الإمامة والرد على المعتزلة .

من الأشاعرة : أبو الحسن الأشعري : كتب في الرد على الفرق ، كتب مقالات الإسلاميين ، الإبانة عن أصول الديانة...إلخ .

ملاحظة :

نشير هنا إلى فريق من المسلمين لا ينتمون لأي فرقة من فرق المتكلين ، نقصد بهم أهل السنة والجماعة أو المحدثين ، كان لهؤلاء دور مهم في تطور علم الكلام ، لكن مرجعيتهم كانت شرعية خالصة ، وإن كانوا يرفضون علم الكلام ويعتبرونه بدعة إلا أن الضرورة دعتهم إلى الدفاع عن العقائد عن طريق المناظرات لدفع الشبهات عن الدين الإسلامي والتي كانت كثيرة في زمنهم .

إن علماء الحديث وعلى رأسهم أحمد بن حنبل وأبو حنيفة وكذلك الشافعي كانت مرجعيتهم القرآن والسنة منهجهم الرأي والاجتهاد ، وكانوا يتفادون التأويل خاصة في الأحاديث التي فها كلام عن العقائد ، هذه الأخيرة كانوا يكتفون بتصنيفها وتبويبها دون الاجتهاد في تأويلها.

المرحلة الرابعة : ضعف علم الكلام وتراجعه : نتكلم هنا عن القرن الخامس للهجرة الذي عرف فيه علم الكلام منعرجا حرجا في طريق تطوره ، لأنه في هذه الفترة تم منعه أو بالأحرى منع الجدل في العقائد ، في هذه الفترة كانت المعتزلة في مرحلة ضعف وزوال لما لقيته من رفض ونفور من الخليفة العباسي المتوكل الذي طلب من أهل الحديث مناظرتها والرد عليها لإضعاف مذهبها ، وقد حدث ذلك فعلا ، وكان هذا قبل القرن الخامس للهجرة .

أصبح كل كلام في العقائد ممنوعا وكل من يخوض في ذلك يعاقب عقابا شديدا ، ووضع بيان من طرف الخلافة لذلك ،سمي بالصحيفة أو الوثيقة القادرية التي وضعها الخليفة العباسي القادر بالله ، وقد كان مضمونها تبيان عقيدة أهل السنة ، وأوامر ونواه أُلزم بها أهل الكلام ، وتم عرض الصحيفة بجمع القضاة والعلماء في دار الخليفة وقراءة كتاب " جمعه القادر بالله في مواعظ وتفاصيل أهل البصرة وفيه الرد على أهل البدع وتفسيق من قال بخلق القرآن"[[2]](#footnote-3) .

ومنذ ذلك الحين منع علم الكلام وأحرقت كتب المتكلمين وعوقب كل من يحوز في مكتبته على كتب المتكلمين ، لذلك يرى بعض المؤرخين لعلم الكلام أن إرثا مهما ضاع في هذه الفترة ، ومنه أصبحت الأولوية لمذهب أهل السنة والجماعة .

1. - مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة ،ص 182.183. [↑](#footnote-ref-2)
2. ابن كثير ،البداية والنهاية . [↑](#footnote-ref-3)